الاسرى المسلمون في الحروب الصليبية

الدكتور راغب حامد البكر
كلية الآداب — جامعة الموصل

توطئة

يعد العدوان الصليبي على المنطقة العربية من ابرز احداث التاريخ العربي الاسلامي وكانت قضايا الأسرى سواء من المسلمين ام من الصليبيين من المسائل المهمة التي برزت خلال ذلك العدوان لما لها من جوانب انسانية او عدوانية ترتبط بطبيعة المعاملة التي حظوا بها من الجانبين ، فحظي بعض الأسرى بتعامل انساني ، وعانى البعض الآخر من سوء المعاملة التي وصلت إلى حد البيع في سوق النخاسة ، بل وحتى الموت ، الأمر الذي يعبر عن اخلاقيات القائمين على الأسر ومبادئهم ، ومن الجدير بالذكر ان العرب المسلمين وبوجه عام كانوا اخلاقيين في تعاملهم مع الأسرى وذلك انطلاقاً من مبادىء الدين الاسلامي السمحاء ، فضلا عن النزعة الانسانية التي يتصفون بها ، ولما كان التعامل الانساني مع الاسرى صفة بارزة في السلوك العربي ، مما تؤكده الأحداث وينقله الينا المؤرخون العرب المسلمون والفرنجة المعاصرون لها ، بينما كان تعامل الصليبيين مع الأسرى المسلمين على النقيض من ذلك ، فقد بدت لنا اهمية دراسة حالات الوقوع في الأسر ومعاناة الأسرى المسلمين خلال فترة اسرهم فضلا عن الصيغ والأساليب التي كانت تفضي إلى تحريرهم ومن اجل تقديم صورة واضحة ودقيقة عن هذا الموضوع لابد من تتبع هذه الظاهرة بدءاً من حالات الوقوع في الأسر وانتهاء بسبل تحرير الأسرى .

الوقوع في الأسر

اتخذت حالات الوقوع في الأسر صيغاً واشكالا متباينة فرضتها طبيعة المعارك والعلاقات التي قامت بين الصليبيين والمسلمين ، فخلال الفترة المبكرة

للعدوان الصليبي على المنطقة العربية اتصف سلوك الصليبيين بالوحشية والعداء تجاه المسلمين الذين وقعوا في اسرهم وخروجهم عما كان متعارفاً عليه آنذاك بين الأمم في معاملة الأسرى. فبعد الانتصار الذي حققه الصليبيون على القوات الاسلامية التي هرعت لانقاذ انطاكيا من ايديهم سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م (١)، وما أعقبه من اجتياح صليبي لمدن بلاد الشام يتوضح لنا هذا السلوك الصليبي حيال الأسرى المسلمين ، فعند حصارهم مدينة البارة (٢) التابعة لمدينة حلب واستسلام اهاليها بعد اخذ الأمان ، نقض الصليبيون عهدهم وشرعوا بقتل اهاليها وسبيهم (٣) ، ثم تابعوا زحفهم إلى معرة النعمان التي ابدى اهلها مقاومة عنيفة دفعت بوهمند حاكم انطاكيا إلى اعطاء اهلها الأمان ، وحين استجابت المدينة لأمانه نقض عهده معهم وقام بعملية ابادة جماعية لسكان المدينة وأخذ من بقي منهم حياً إلى انطاكيا اسرى ليباعوا عبيداً (٤) .

ان السلوك الوحشي وغير الانساني للصليبيين يتضح بشكل جلي عند تمكنهم من الاستيلاء على مدينة القدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حيث تبين المذبحة التي قاموا بها تجاه سكان المدينة ، والتي استسلمت لهم ، عدوانيتهم وحقدهم ، ومن الشهادات التي تدينهم ما ذكره شاهد عيان منهم (٥) بقوله : «فلما ولج حجاجنا المدينة جدّوا في قتل الشرقيين (العرب) ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين اعملوا فيهم افضع القتل طيلة اليوم بالجملة حتى لقد فاض المعبد بدمائهم » وبلغ عدد ضحايا هذه المذبحة بحدود السبعين الفاً (٦) ، وكان لها موقع أليم في نفوس المسلمين وأثر سلباً على طبيعة العلاقات بين الطرفين لاحقاً . وفسر رنسيمان (٧) السبب وراء عدم قيام علاقة ايجابية ثابتة بين الحكام المسلمين والصليبيين بانه يعود إلى ذكرى تلك المذبحة .

استمر الصليبيون بنهجهم العدواني هذا تجاه سكان المدن التي استولوا عليها في المنطقة خلال تلك المرحلة ، فعندما احتلوا سروج (٨) سنة ٤٩٤هـ/

١١٠١م اصبح سكانها ما بين قتيل واسير (٩) ، وهؤلاء الأسرى عدوا عبيداً وتم بيعهم في الأسواق ، اما اهالي حيفا فقد عرض عليهم البنادقة ابان الحصار اعتناق المسيحية او الجلاء عن المدينة ، الا انهم رفضوا ذلك (١٠) ، واصروا على الدفاع عنها ، الأمر الذي دفع بالصليبيين إلى اقتحام المدينة وتعرض سكانها من المسلمين للقتل (١١) ، وجرت في قيسارية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م ، مذبحة فظيعة في المسجد الجامع الذي لجأ اليه عدد كبير من سكان المدينة ، ولم ينج سوى قاضي القضاة وقائد الحامية اللذين ابقى عليهما بلدوين الأول ملك بيت المقدس ليحصل على فدية كبيرة (١٢) ، اما النساء اللواتي نجون من الموت فقد عشن حياة العبودية والرق (١٣) ، وتعرض اهالي طرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م إلى المصير نفسه ، فعندما وجد واليها نفسه عاجزاً عن صد هجمات الصليبيين ارسل إلى بلدوين يعرض عليه التسليم مقابل شروط منها : عدم الاعتداء على حياة من يرغب في البقاء في المدينة على ان يدفع ضريبة سنوية ، وعدم التعرض لكل من يريد مغادرتها ، الا ان الجنوية من الصليبيين بمجرد دخولهم إلى المدينة قاموا بنهبها واسروا رجالها وسبوا نساءها (١٤) . وحدث ايضاً عندما استولى الصليبيون على دمياط في عهد الملك الكامل محمد سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، ان طلب اهلها منهم الأمان ، وأن يخرجوا من المدينة باموالهم فحلف لهم الصليبيون على ذلك ، فلما فتحوا لهم الأبواب ، «دخلوها وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف ، وباتوا في الجامع يفجرون بالنساء ، ويغتصبون البنات ، وأخذوا المنبر والمصحف» (١٥) .

تطورت السياسة العدوانية للصليبيين بعد اقتحام العديد من المدن إلى الاستقرار واقامة مستوطنات لتكوين مقرات دائمة لحكمهم ، واتخاذها مواقع انطلاق لسياسة توسعية عدوانية تجاه المناطق العربية الأخرى في عموم المنطقة ، ومن الملاحظ هنا في هذه الفترة المبكرة من وجودهم في المنطقة ، حرص الصليبيين على حياة الأسرى المسلمين ، وكانت تحدوهم في ذلك عوامل شتى منها : ان

الصليبيين بقوا يشكلون أقلية وسط محيط عربي اسلامي كبير، لذا كانوا باستمرار بحاجة ماسة لليد العاملة في مجال الزراعة والخدمة ، وفي بناء القلاع والحصون ، فضلا عما تحققه عملية افتداء الأسرى من اموال طائلة إلى جانب الاستفادة من الأسرى المسلمين في مجال مبادلتهم مع اسراهم لدى المسلمين وعلى هذا نجد ان الصليبيين حرصوا على استزادة اعداد الأسرى المسلمين من خلال الغارات والحروب التي شنوها تجاه الضياع والمدن وطرق المواصلات الاسلامية المجاورة لهم .

فيما يتعلق بالموارد المالية الناجمة عن افتداء الأسرى يذكر رنسيمان (١٦) بأن بلدوين الأول ملك بيت المقدس عند اعتلائه العرش كان يعاني من ضائقة مالية تمكن من معالجتها عن طريق فدية مقدارها خمسون الف قطعة ذهبية قدمها دقاق حاكم دمشق مقابل الافراج عن اسراه . كذلك نرى بلدوين الثالث يقوم بمهاجمة قبيلة عربية كانت تجتاز نهر الأردن ، وبعد ان قتل معظم رجالها واسر من تبقى من الرجال والنساء ، حصل على فدية مقابل اطلاق سراحهم ، كما هاجم سنة ٥٠٦هـ/١١٢٠م قافلة تجارية غنم منها مايزيد عن الخمسين الف دينار وخمسين اسيراً عاد بهم إلى عكا (١٧) .

ونرى انه على الرغم من المعاهدات والاتفاقات التي كانت تعقد بين المسلمين والصليبيين وما يتمخض عنها من عقد هدن لفترات محدودة ، نجد ان الصليبيين لم يحترموا هذه المواثيق ، فعندما حصلت جماعة من الرعاة المسلمين على اذن من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس للرعي حول مدينة بانياس ، الا ان الخيول التي كانت بحوزتهم اثارت مطامع بلدوين فهاجمهم سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م وقتل منهم من قتل واسر من اسر ونهبت اموالهم ومواشيهم (١٨) وفعل شاتيون مثل ذلك حين نقض الهدنة التي عقدت بين صلاح الدين الأيوبي وبلدوين الرابع ملك بيت المقدس كما سنرى .

استغل الصليبيون الحصون الواقعة على اطراف كياناتهم السياسية للقيام بأعمال السلب والنهب تجاه القوافل التجارية وما يتمخض عنها من اسر للتجار

والمسافرين ، فنجد ان حصني الكرك والشوبك قد لعبا دوراً كبيراً بهذا الصدد بحكم هيمنة موقعهما على الطرق التي تربط بلاد الشام بمصر والحجاز وقد وصف ابو شامة (١٩) حصن الكرك بقوله : «فيه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة» وعلى الرغم من تشديد الحراسات على القوافل الا ان هذا لم يحل دون استمرار حوادث التعرض لها ومنها حادثة رينالد شاتيون صاحب اقطاع الكرك الذي نقض الهدنة التي ابرمت بين صلاح الدين والصليبيين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م والمتضمنة عدم التعرض للقوافل الاسلامية التي تمر بصحراء الأردن (٢٠) والتي اصبحت بموجبها القوافل الاسلامية تسير بسلام بين مصر والشام ، ولكن هذا الأمر يبدو انه لم يكن ليرضي رينالد الذي عرف بطمعه ولؤمه وحبه للمغامرة فانقض بغتة على قافلة كبيرة كانت في طريقها من مصر إلى دمشق واستولى على مافيها من اموال وفيرة ، اما رجالها فأخذهم اسرى إلى حصن الكرك حيث «سامهم الشد والشدة» (٢١) .

لم يقتصر تعرض الصليبيين على القوافل في الطرق البرية بل تعداه إلى البحر واستغلوا هيمنتهم على معظم موانيء بلاد الشام في التعرض للمراكب الاسلامية التي كانت تجوب البحر بين الموانيء الشامية والمصرية مما جعل السلطات الاسلامية تعمل على توفير الحماية لها وذلك بارسال اسطول لمرافقتها . وعلى الرغم من ذلك فهناك اشارات عن وقوع تلك المراكب في قبضة الصليبيين ، حيث يذكر ابن القلانسي (٢٢) ضمن حوادث سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، ان مجموعة من التجار اضطروا إلى الاقلاع من مصر دون الأسطول فصادفتهم مراكب الصليبيين فأسرتهم ، وقد وردت اشارات عديدة حول وقوع اعداد من المغاربة في اسر الصليبيين (٢٣) ، ويذكر ان احد القادة الصليبيين اخذ مركباً من حجاج من المغاربة كانوا زهاء اربعمائة رجل وامرأة (٢٤) . ويشير ابن الأثير (٢٥) في حوادث عام ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى ان الصليبيين نقضوا

الهدنة التي ابرموها مع نور الدين زنكي، فقاموا بالاستيلاء على مركبتين قادمتين من مصر إلى الشام عند اللاذقية واسروا التجار الذين عليها ولتحقيق اغراضهم هذه فقد انشأوا قاعدة لهم على جزيرة ارواد مقابل طرابلس (٢٦) ، وعلى الرغم من الهدنة التي عقدت بين سيف‌الدين قلاوون وصليبيي طرابلس سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م فان الأخيرين قاموا بمهاجمة قافلة تجارية قادمة في البحر من مصر واسروا تجارها (٢٧) .

الحياة في الاسر

كان الأسرى المسلمون يقتادون إلى المدن والقلاع ، فالبعض منهم يودع في السجن لحين البت في مصيرهم، وكانوا يعاملون معاملة سيئة (٢٨) . ويصف إبن جبير (٢٩) حالتهم بقوله : «من الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم اسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد» . ويذكر ابن شداد(٣٠) ان الأسرى الذين نجوا من المذبحة التي ارتكبها الصليبيون تجاه أهالي عكا والتي سيأتي ذكرها لاحقاً كانوا من الرجال الأقوياء للاستفادة منهم في اعمال الزراعة وبناء القلاع والحصون وغيرها من الأعمال الشاقة في ضياع الملك وكبار رجال الأقطاع وبموجب قوانين مملكة بيت المقدس التي عدت الأسرى كالمواشي يباعون ويشترون ويحق للسيد ان يفعل بهم مايشاء (٣١) . اما عن النساء المسلمات اللواتي وقعن في الاسر فلن يكون حالهن بأفضل حال من الرجال اذ غالباً ما كان يوضع في ارجلهن خلاخيل من الحديد ويعرضن في الأسواق (٣٢) التي اشتهرت في عكا وغيرها وعرف تجار جنوة بالاتجار بالرقيق وغالباً ماتحولت النساء الى جاريات يسخرن في ادارة الطواحين مدى الحياة (٣٣) او للخدمة في بيوت الصليبيين ، ويظهر بأن المسلمين ومع مرور الوقت عرفوا مهارة النساء المسلمات بفنون الطبخ والنظافة . ويؤكد لنا اسامة بن منقذ (٣٤) كذلك عندما دعاه احد اصدقائه من

الفرنجة الى وليمة حاول الاعتذار عنها إلا أن ذلك الصليبي أخبره بأنه يمتلك جواري مصريات يشرفن على تصريف شؤون داره ومما يؤكد لنا اهتمام الصليبيين باقتناء النساء المسلمات لغرض الخدمة هي تلك الغارة التي شنوها سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٤م على مدينة حماه وسبوا نساءها اللواتي كن يغسلن عند بوابة المدينة على نهر العاصي (٣٥) .

تعرض الأسرى المسلمون لشتى انواع التعذيب الجسدي ، فيذكر لنا اسامة إبن منقذ في مذكراته (٣٦) ماواجهه حسنون احد الفرسان المسلمين من مدينة شيزر الواقعة في شمال سوريا الحالية ،الذي كان مشهوداً له في مجال الفروسية والقتال ، فحين وقع في أسر حاكم انطاكيا الصليبي لم يكتف بتعذيبه بل أمر بقلع عينه اليمنى ، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً» .

لم تقتصر معاناة الأسرى على حياة العبودية ومايترتب عليها من اعمال شاقة وغير ذلك بل استخدم الصليبيون رهائن للضغط على قادة المقاومة الاسلامية عندما كانوا يضيقون الخناق عليهم ، فعند حصار صلاح الدين لمدينة القدس هدد الصليبيون بقتل كافة الأسرى الموجودين اذا لم يرحل عنهم . الا ان انهيار معنوياتهم حال دون تنفيذ ذلك (٣٧) وحصلت الحالة ذاتها عند استيلائه على قلعة بزرية (٣٨) اذ رفع الصليبيون الأسرى المسلمين « وأرجلهم في القيود والخشب المنقوب » (٣٩) في محاولة منهم لدفع القوات الأسلامية من المدينة.

اما عن حادثة قتل رهائن المسلمين في عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فانها تكشف لنا عما يحمله الصليبيون من حقد وعداء تجاه سكان المنطقة ، اذ في الوقت الذي استسلمت المدينة بعد اخذ الأمان من الصليبيين عد اهاليها جميعاً اسرى (٤٠) ، وطالبوا صلاح الدين الافراج عنهم مقابل شروط قاسية وهي دفع فدية قدرها مئتا الف واطلاق سراح الف وستمائة اسير من بينهم مئة معينين من جانبهم

وصليب الصلبوت (٤١) . وعلى الرغم من وطأة هذه الشروط فقد وافق صلاح‌الدين عليها مقابل اعطائه مهلة من الوقت فأمهل ثلاثة اشهر ينجز في نهاية كل منها شرطاً وعند انتهاء الشهر الأول، جاءت ريتشارد رسالة من صلاح‌الدين يوضح فيها استعداده لتنفيذ ما يتعلق بالدفعة الأولى مقابل اعطائه بعض الرهائن ضماناً لاطلاق سراحهم جميعاً في نهاية المطاف لعلمه انهم «ان تسلمو المال والصليب والأسرى ، واصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم» على حد تعبير ابن شداد (٤٢) . ومما زاد في شكوك صلاح‌الدين بعدم التزام ريتشارد قلب الأسد الذي تزعم الحملة الصليبية الثالثة بعد انسحاب فيليب اوغسطين ملك فرنسا منها (٤٣) بتنفيذ الاتفاق ، هو رفض فرسان الداوية ان يتكفلوا بأن يطلق ريتشارد سراح الأسرى المسلمين عندما ينفذ صلاح الدين تلك الشروط ، وبينما كان صلاح الدين ينتظر مقترحات جديدة من ريتشارد لحل هذه المسألة قام الأخير بأخذ الأسرى المسلمين الذين كانوا زهاء ثلاثة الاف إلى تل العياضية بالقرب من عكا حيث اوثق الصليبيون ايديهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد وقتلوا عن آخرهم (٤٤) .

ويذكر ابن شداد (٤٥) الأسباب التي دفعت ريتشارد للقيام بهذه المذبحة منها شهوة الانتقام للخسائر التي لحقت بالصليبيين اثناء حصارهم لمدينة عكا وانه كان يروم التوجه إلى عسقلان وان بقاء هؤلاء الأسرى احياء يشكل خطراً على عكا لدى مغادرته لها ، وعلى الرغم من محاولة هارولد لامب (٤٦) ايجاد مسوغ لهذا العمل المشين الا انه يعود ويصف هذه الحادثة بقوله: «تظل الحقيقة قائمة وهي ان ريتشارد لطخ اسمه وشرفه بهذه القسوة التي لم يكن لها مبرر او ضرورة ومهما اختلفت وجهات نظر المؤرخين (٤٧) حول مذبحة عكا ، فانها اججت روح العداوة والحقد بين المسلمين والصليبيين وعرضت حياة الأسرى في كل من المعسكرين للخطر والموت ، واصبحت روح الانتقام وسفك الدماء هي السائدة ، وبلغت الوحشية مداها اذ يأسر الصليبيون مسلماً

فيقتلونه ثم يرمونه في النار وبالمقابل فعل المسلمون الشيء نفسه ايضاً ، وقد شاهد المؤرخ سبط بن الجوزي (٤٨) النار مشتعلة في المعسكرين في وقت واحد .

تحرير الاسرى

شغل موضوع تحرير الأسرى قادة المسلمين وعامتهم ،واهتموا به اهتماماً كبيراً لاعتبارات دينية وسياسية واجتماعية ، واصبح افتداء الأسرى من ابرز مظاهر التقرب إلى الله سبحانه وتعالى في ذلك الوقت ، ويذكر ابن جبير (٤٩) «ان ملوك اهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء واهل اليسار والثراء انما كانوا ينفقون اموالهم في هذه السبيل» . وكان نورالدين الزنكي قد خصص جزءاً من امواله لافتداء الأسرى المسلمين ، وفي اثناء مرضه نذر ان يفرق اثني عشر الف دينار في فداء الأسرى . وكان اسامة بن منقذ (٥٠) في اثناء قيامه بمهمة السفارة بين حاكم دمشق معين‌الدين انر والصليبيين يستغل وقته في القدس لشراء الأسرى وتخليصهم من حالة الأسر ابتغاء مرضاة الله . وكذلك يذكر ابن جبير (٥١) ان هنالك تاجرين من دمشق قد اشتهرا في ذلك الوقت بافتداء الأسرى المغاربة .

واهتم القادة المسلمون بموضوع تحرير الأسرى واولوه عناية كبيرة ، ومما يذكره ابو شامة (٥٢) ان الناصر صلاح‌الدين دأب في كل «بلد يفتحه يبدأ بالأسرى فيفك قيودها» ويتربهم منه . فعند تحرير عكا اخرج صلاح‌الدين الذين قارب عددهم زهاء اربعة الاف اسير واعطى كل منهم نفقة (٥٣) ؛ وعندما فتح حصني تبنين (٥٤) وسرمينية (٥٥) اطلق من فيها من الأسرى المسلمين وكان عددهم كبيراً فكساهم واعطاهم نفقات الطريق ليصلوا إلى اهلهم (٥٦) . وفعل الأمر نفسه مع اسرى المسلمين في القدس عند تحريرها (٥٧) ومما يؤكد حرص السلطات الاسلامية على مراعاة الأسرى هو انشاء ديوان يشرف

على شؤون الأسرى من كافة النواحي وفي مقدمتها فكاكهم من الأسر فجعل التجار فائدة في كل مئة درهم شيء معلوم تشجيعاً على احضار اسرى المسلمين إلى دمشق حيث يكسون ويطعمون (٥٨) .

وتعكس لنا المفاوضات والمعاهدات التي ابرمت بين المسلمين والصليبيين مدى الاهتمام بأحوال الأسرى وتخليصهم من حالة الأسر . فعندما توجه صلاح الدين لمقاتلة الأرمن في اعالي بلاد الشام سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، هرع ملكهم إلى طلب الصلح من صلاح الدين مقابل اطلاق مالديه من اسرى المسلمين ومما يبذله من اموال . الا ان صلاح الدين اضاف إلى هذا العرض ان يقوم ملك الأرمن بشراء خمسمائة اسير من البلاد الخاضعة للصليبيين (٥٩) ، ولما عزم صلاح الدين على مهاجمة انطاكيا سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ارسل حاكمها يعرض على صلاح الدين ان يطلق مالديه من الأسرى المسلمين وكان عددهم كبيراً مقابل عدم التعرض لمدينته فوافق صلاح الدين وارسل احد خواصه وهو شمس الدين ابن منقذ الذي اشرف على تحرير الأسرى (٦٠) . وخلال المفاوضات التي جرت بين الملك العادل اخي صلاح الدين وريشارد قلب الأسد سنة ٥٨٧هـ/١١٩٢م اصر العادل على اطلاق الأسرى المسلمين الموجودين في مدينة صور وعكا مقابل الشروط التي عرضها الصليبيون والتي من ضمنها ان تكون لهم المنطقة الساحلية من صور إلى يافا ، وهذا ما حصل فعلا (٦١) ، ونصت المعاهدة التي عقدت بين الملك الكامل الأيوبي والصليبيين سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م في احد بنودها على ان يطلق كل طرف الأسرى الذين في حوزته (٦٢) . وتقرر بموجب الاتفاقية التي عقدت بين السلطان تورانشاه والصليبيين عند هزيمتهم في المنصورة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م والتي وقع فيها الملك لويس التاسع اسيراً بين المسلمين ان يقوم الصليبيون باطلاق كافة الأسرى المسلمين (٦٣) .

وكان لعوائل الأسرى من المسلمين اسهام في تحرير ذويهم من الأسر فوردت اشارة بهذا الصدد في معرض حديث نورالدين زنكي عن الأسرى المغاربة اذ

جاء بقوله : «هؤلاء يفتديهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا اهل لهم» (٦٤) وتشير المعاهدة التي عقدت بين المنصور سيف الدين قلاوون وصليبيي عكا عام ٦٨١هـ/١٢٨٣م إلى ان ذوي الأسير يقومون بدفع فديته مقابل اطلاق سراحه (٦٥).

لاشك ان حياة العبودية وماترتب عليها من بؤس وشقاء ومذلة دفعت البعض إلى ان يفضلوا الموت على الوقوع في الأسر . كما يروي لنا اسامة بن منقذ (٦٦) خبراً حول فتاة مسلمة اسرت من قبل احد الصليبيين ورمت نفسها من فوق الحصان على النهر مفضلة الموت على حياة الأسر . وهناك اشارات حول قيام عدد من الأسرى المسلمين بالهرب من الصليبيين معرضين انفسهم للموت ، وحالف البعض منهم النجاح عندما تمكنوا من الوصول إلى الضياع الاسلامية القريبة حيث ساعدهم اهاليها على الوصول إلى ذويهم (٦٧) . ومن ذلك حادثة نادرة حدثت لاحد الأسرى المسلمين وقد اعتقل في عكا ، فاختفى حبلا في وسادته وتدلى به من نافذة المرحاض وانطلق هارباً إلى تل العياضية ثم كسر قيوده واسرع إلى المسلمين (٦٨) . هذا في حين اضطر البعض من الأسرى المسلمين للقبول ظاهراً باعتناق المسيحية للتخلص من معاناة الأسر (٦٩) .

وتجدر الاشارة إلى عدم وجود قواعد ثابتة يتم بموجبها مبادلة الأسرى او افتداؤهم اذ غالباً ماكانت مكانة الأسير واهميته هي التي يتقرر بموجبها مقدار الفدية او العدد الذي يتم مبادلته من اسرى الطرف الآخر ، فعلى سبيل المثال عرض جكرمش حاكم الموصل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م على الصليبيين مبلغاً قدره «خمسة عشر الف بيزانت مقابل افتداء اميرة سلجوقية» (٧٠) وعندما وقع حاكم طرابلس في اسر المسلمين في عهد نورالدين افتدى نفسه بمائة وخمسين الف دينار وفكاك الف اسير من المسلمين (٧١) ، ووضع الصليبيون فدية كل من أبي المشطوب وقره قوش قادة صلاح الدين على عكا بمبلغاً قدره ثلاثون الف قطعة ذهبية ، اما عن بقية الأسرى فقد طلبوا اضافة إلى المال عدداً من اسراهم لدى صلاح الدين (٧٢) وفي بعض الأحيان كان افتداء الأسرى من عامة المسلمين لقاء مبلغ زهيد (٧٣) .

الخاتمة

يتضح لنا مما تقدم بأن الصليبيين عند اجتياحهم للمنطقة العربية وحتى استقرارهم فيها قرابة القرنين من الزمن قد خالفوا ابسط القواعد الانسانية في التعامل مع الأسرى المسلمين فاتصف سلوكهم بالوحشية وعدم احترام العهود والمواثيق التي قطعوها لسكان المدن التي استسلمت لهم مقابل الحفاظ على ارواحهم واموالهم ، الا ان مصيرهم كان اما الابادة او الأسر او الضغط عليهم لتغيير معتقداتهم الدينية ، وبعد استقرارهم في المنطقة استمروا على هذا النهج على الرغم من المعاهدات والاتفاقات التي كانت تنظم العلاقة بينهم ، وبين المسلمين الا انهم كانوا هم البادئين في نقضها يدفعهم في ذلك طمعهم وجشعهم وروح التعصب والعداء تجاه المسلمين. ومن الملاحظ ان هناك تحولا قد طرأ في سياسة الصليبيين تجاه الأسرى في المرحلة اللاحقة الا وهي المحافظة على ارواح الأسرى المسلمين لتسخيرهم في اعمال الزراعة والخدمة وفي بناء القلاع والحصون وفي جني الأموال الطائلة من جراء افتدائهم من قادة المسلمين وتجارهم ومن ذويهم ، اذ كان الصليبيون باستمرار يعانون نقصاً في الكثافة السكانية . هذا فضلا عن الاستفادة من الأسرى في مبادلة اسراهم وكان لهذه المسألة دورها في تطوير العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والصليبيين خاصة وان السلطات الاسلامية كانت تحرص بشتى الوسائل على تحرير اسراها انطلاقاً من معتقداتها الدينية ونزعتها الانسانية التي تمجد وتعظم قيمة الانسان في المجتمع وحقه في الحياة الحرة الكريمة .

هوامش البحث

(١) ابن القلا نسي ، ذيل تأريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ، من ١٣٦ ، ابن العديم ، زبدة الطلب في تأريخ حلب ، (دمشق) ، ٢/ ١٣٧ .

(٢) بلدة من نواحي حلب ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١/ ٤٦٥ .

(٣) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : حسن خبشي (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٤) ابن القلا نسي ، ذيل تأريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، اعمال الفرنجة ، ص ١٠٥ — ١٠٦.

(٥) اعمال الفرنجة ، ص ١١٨ — ١١٩ ، وعن بشاعة هذه ينظر :
Kry, A, C. The first Crus ader, Princeton, 1958. P. 261.

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، (بغداد ١٩٩٠) ، ١٠ / ١٠٥ ، ابن الأثير ، الكامل في التأريخ ، (بيروت ١٩٦٦) ، ١٠ / ٢٨٣ ، ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٨٣) ، ص ٣٤٢ .

(٧) تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني (بيروت ١٩٦٧) ، ١/ ٤٠٥ ،

(٨) بلدة قريبة من حران من ديار مصر ، معجم البلدان ، ٣/ ٢١٦ .

(٩) ابن القلا نسي ، ذيل تأريخ دمشق ، ص ١٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٣٢٥.

(١٠) Prawer, J. The settle men of the Latins in Jerusalem speculum XIVII 1952. P. 490.

(١١) ابن القلا نسي ، ذيل دمشق ، ص ١٣٩ .

(١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠/ ٤٧٥ — ٤٧٦ .

(١٣) محمد فتحي ، احوال المسلمين في مملكة بيت المقدس ، (بغداد ١٩٨٩) ، ص ٧٠.

(١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠/٤٧٥ .

(١٥) العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، (بيروت ١٩٧٩) ، ٥/٦٦.

(١٦) تأريخ الحروب ، ٢٠ / ١١٩ — ١٢٠ .

(١٧) ابن القلا نسي ، ذيل دمشق ، ص ١٨٣ .

(١٨) ابن القلا نسي ، ذيل دمشق ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(١٩) الروضتين في اخبار الدولتين ، (القاهرة ١٢٨٨) ، ٢ / ٥٥ .

(٢٠) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (القاهرة ١٩٥٧) ،٢/١٨٥ .

(٢١) الروضتين ، ٢/٧٥ .

(٢٢) ذيل دمشق ، ص١٧١ — ١٧٢ .

(٢٣) ابن جبير ، رحلة جبير (بيروت ١٩٨١) ، ص ٢٥٣ .

(٢٤) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، (بيروت ١٩٨١) ، ص ١٠٥ .

(٢٥) ابن الأثير ، الباهر في الدولة الا تابكية ، (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٥٤ .

(٢٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٧٢) ، ٧ /٣١٥ — ٣١٧ ،

(٢٧) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ٤/٢٢ .

(٢٨) ابو شامة ، الروضتين ، ٢/٧٥ .

(٢٩) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ .

(٣٠) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، (القاهرة ١٩٦٩) ، ص ١٧٤ ، ابن العديم زبدة الحلب ، ٣ / ١٢٠ .

(٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، تأريخ العلاقات بين الشرق والغرب (بيروت ١٩٧٢) ، ص ٣٣٣ .

(٣٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٣٣) Richard, J. le Poyaurue: Latin de Jerusalem, Paris 1953, P. 123.

(٣٤) اشتهر اسامة بن منقذ بمعاشرته للصليبيين في السلم والحرب ، ويعد كتابه الا عتبار من المصادر الفريدة التي تناولت وصفاً دقيقاً لحياة الصليبيين في المنطقة العربية ، الا عتبار ص ١٨٠

(٣٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في حياة الأعيان ، (حيدر آباد ١٩٥١) ، ٨ /٤٢٦ ابو شامة ، تراجم رجال القرنين (بيروت ١٩٧٢) ص ٥١ .

(٣٦) الا عتبار ، ص ٨٦ .

(٣٧) ابو شامة ، الروضتين ، ٢/٩٧ .

(٣٨) حصن قرب السواحل الشامية على جبل شاهق ، معجم البلدان ، ١/ ٣٨٣ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٦ .

(٤٠) النوادر ، ص ١٧٤ ، ابو الفدا ، المختصر ، ٣/٧٩ .

(٤١) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٧٠ .

(٤٢) النوادر ، ص ١٧٣ ، ابو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٧٩ .

(٤٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، (القاهرة ١٩٧١) ، ٢/٨٧١ — ٨٧٢ .

(٤٤) ابو شداد ، النوادر ، ص ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ٣/١٢٠ ، ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول ، (بيروت ١٩٨٣) ، ص ٣٨٧ .

(٤٥) النوادر ، ص ١٧٥ .

(٤٦) شعلة الا سلام ، (بغداد ١٩٦٧) ، ص ٢١٨ .

(٤٧) نظير حسان سعداوي ، التأريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٧)، ص٢٦٢ — ٢٦٣ ، دريد عبد القادر ، سياسة صلاح الدين الأيوبي ، (بغداد١٩٧٦)، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٤٨) مرآة الزمان ، ص ١٨٢ ، نظير سعداوي ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، (القاهرة ١٩٦١) ، ص ٧٢ .

(٤٩) رحلته ، ص ٢٥٣ .

(٥٠) الا عتبار ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥١) رحلته ، ص ٢٥٣ .

(٥٢) الروضتين ، ٢/ ٨٩ .

(٥٣) ابن شداد ، النوادر ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٥٤) بلدة في الجبال المطلة على مدينة بانياس في طريق دمشق ، معجم البلدان ، ٢/٣٦٤.

(٥٥) بلد مشهور من اعمال حلب ، ٣/٢١٥ .

(٥٦) ابن الأثير ، الكامل ، ١١ /٥٤٢ ، ١٢ / ١٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٦ .

(٥٧) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، (مصر ١٣٢١ هـ) ص ٥٦ .

(٥٨) سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ٦٨ .
(٥٩) ابو شامة ، الروضتين ، ٢ / ١٦ .
(٦٠) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٦١) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(٦٢) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (القاهرة ١٩٣٤) ، ١/ ٢١٩ .
(٦٣) جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر (بيروت ١٩٨١) ، ص ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٦٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٣ .
(٦٥) المقريزي ، السلوك ، ١/٦٨٥ .
(٦٦) الأعتبار ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٦٧) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٦ .
(٦٨) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ابو شامة ، الروضتين ٢/١٩٣ — ١٩٤.
(٦٩) Prawer . op, cit p. 490.
(٧٠) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ٢/٧٦ — ٧٧ .
(٧١) ابو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٤٠ .
(٧٢) لامب ، شعلة الأسلام ، ص ٢١٨ .
(٧٣) ابن منقذ ، الأعتبار ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .